الأداء اللغوي لطلاب الجامعات

أسباب تدنيه وأساليب علاجه

بقلم: عبدالستار الحلوجي

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة

ليس هذا بحثاً وإنما هو إطلالة على واقع الأداء اللغوي للطلاب في المرحلة الجامعية من واقع خبرة قاربت خمسين عاماً من التدريس بهذه المرحلة في أكثر من تخصص، وفي أكثر من جامعة، وفي أكثر من دولة عربية. تجربة عانيت فيها من التدني المطرد والمتزايد في مستوى الأداء اللغوي لطلاب هذه المرحلة، وحاولت أن أرصد مظاهره في دراسة نشرتها منذ خمسة وثلاثين عاماً بعنوان "قراءة في أوراق جامعية". وحين فكرت في إصدار طبعة جديدة منها وجدت أن حجمها سيتضاعف أضعافاً كثيرة لأن الانفلات اللغوي –إن صح التعبير– قد تجاوز الحد، ولأن ما رصدته في كراسات إجابات الطلاب في ثمانينات القرن الماضي لا يعد شيئاً بالقياس إلى ما آل إليه المستوى في السنوات الأخيرة.

ولست أبالغ إذا قلت إن اللغة العربية أصبحت غريبة على ألسنة أبنائنا، وإن تعلمها يشكل عبئاً ثقيلاً عليهم، وإن المستوى اللغوي لطلاب المدارس والجامعات أصبح مزرياً، وإن الأخطاء الإملائية والنحوية تفشت بين طلاب الجامعات وبلغت درجة يصعب تحملها، بل يصعب تصورها. فأصبحنا نرى طالب الجامعة يخطئ في كتابة البسملة وينصب الفاعل ويرفع المفعول والمجرور. ولا يقف الأمر عند الأخطاء الإملائية والنحوية الصارخة، وإنما يتجاوزها إلى التواء التعبير وفساد الصياغة واللجوء إلى العامية حين يستعصي التعبير بالفصحى. والغريب أن مثل هذه الأخطاء لم تكن تقبل منا ونحن طلبة في المرحلة الابتدائية. وهنا يبرز السؤال:

كيف وصل طلاب بهذا المستوى إلى الجامعة؟ كيف عبروا المرحلة الابتدائية ومن بعدها المتوسطة ثم الثانوية ووصلوا إلى الجامعة؟ وما السبيل لعلاج هذه الظاهرة؟

في تقديري أن عجز طلاب الجامعات العربية عن الأداء اللغوي السليم وعن التعبير عن أنفسهم وعما حصلوه من معلومات لم يأت من فراغ وإنما له عدة أسباب أوجزها فيما يلي:

أولاً: التساهل لدرجة التسيب في محاسبة التلاميذ في مراحل التعليم المختلفة على سلامة اللغة والإملاء. فالشباك التي كانت محكمة بحيث لا تسمح بأن يمر خلالها إلا اللغة السليمة والإملاء الصحيح أصبحت واسعة لدرجة تسمح لكثير من الأخطاء أن تنفذ منها بسهولة ويسر. فينتقل الطالب من فرقة إلى أخرى، ومن مرحلة إلى المرحلة التي تليها محملاً بهذه الأخطاء (أو الفيروسات) دون أن يحسن بها، ومن ثم لا يحاول علاجها أو التخفيف من حدتها.

ثانيا: إهمال مادة الإملاء في المرحلة المتوسطة من التعليم اعتقاداً بأن الطالب قد تعلمها في المرحلة الأولى ولم يعد بحاجة إليها.

ثالثاُ: ضعف المستوى العلمي والتربوي لمعلمي اللغة العربية وخاصة معلمي المراحل الأولى، وضحالة المناهج، وعقم طرق التدريس. فالنحو يدرس بطريقة تنفر الطلاب منه وتجعلهم يسقطونه من حسابهم لأن الجهد الذي يبذلونه في استيعابه لا يتناسب مع العائد المرجو منه. ولو أن مدرس اللغة استطاع أن يغرس في نفوس تلاميذه أن النحو ليس مجرد قواعد تحفظ وإنما هو أساس لفهم المعنى، وأن الخطأ النحوي أو الإملائي ينتج عنه بالضرورة خطأ في الفهم؛ لو نجح في ذلك لسقط الحاجز النفسي بين التلاميذ ومادة النحو، ولأقبلوا عليها وتقبلوها بلا خوف أو مضض. ولو أننا استطعنا أن نحبب تلميذ المرحلة الابتدائية في اللغة فسنكون بذلك قد وضعنا أقدامنا على أول الطريق لحل المشكلة.

رابعاً: هجر الفصحى في البيت وفي المدرسة وفي الشارع، وفيما تقدمه وسائل الإعلام المرئية من أفلام ومسلسلات وأغاني وإعلانات جعلها غريبة على الآذان. فالتدريس يتم في الغالب الأعم باللغة العامية. وحتى أساتذة الجامعات لا يحاضرون بالفصحى، ولا يحرصون عليها فيما ينشرونه من مؤلفات.

خامساً: إسقاط الأداء اللغوي والإملائي السليم من الحساب عند تقييم الطلاب في المواد المختلفة في جميع مراحل التعليم، بما فيها المرحلة الجامعية، والاقتصار على تقييم الجانب المعلوماتي. فاختباراتنا –بكل أسف– تقيس القدرة على التحصيل ولا تقيس القدرة التفكير ولا على التعبير.

سادساً: عدم الاهتمام بسلامة اللغة في الكتب التي يرجع إليها الطلاب ويستذكرون منها دروسهم. صحيح أن الكتب المقررة في اللغة العربية في التعليم العام تخضع للمراجعة، ولكن ما سواها من كتب دراسية لا تشرف عليها وزارة التعليم لا توجد عليها أية رقابة لغوية، والكتب التي يؤلفها المدرسون في الجامعات في التخصصات المختلفة لا يحسب فيها للغة حساب. والنتيجة الطبيعية لذلك أن تترسخ الأخطاء الإملائية والنحوية في أذهان الطلاب، وكيف ننتظر منهم أن يكتبوا بلغة سليمة إذا كان ما يقرءونه قد كتب بلغة سقيمة؟

سابعاً: تفشي الأخطاء الإملائية والنحوية لدرجة وبائية فيما نراه من ملصقات وإعلانات في الميادين والطرقات وفي وسائل الإعلام المرئية وفي المؤسسات الحكومية وغير الحكومية يساعد على شيوع هذه الأخطاء ويضفي عليها نوعاً من الشرعية.

ثامناً: اصطناع الشباب لغة بدأوا يتداولونها فيما بينهم في وسائل التواصل الاجتماعي لا تمت إلى الفصحى ولا إلى العامية، بل لا تمت إلى العربية ولا إلى أي لغة أجنبية. وتلك ظاهرة تمثل تحدياً جديداً لا يواجه لغتنا الفصحى فحسب، وإنما يواجه كل اللغات.

تلك –في نظري– خيوط عدة تداخلت مع بعضها ونتج عنها نسيج لغوي متهالك يعاني منه شباب جامعتنا العربية. ولا سبيل إلى التعافي من هذه العلة إلا بتضافر الجهود وتكاتف المؤسسات التعليمية وغير التعليمية، والتعامل مع المشكلة لا باعتبارها مشكلة تعليمية أو تثقيفية، وإنما باعتبارها مشكلة قومية ومشكلة أمن اجتماعي. فاللغة وسيلة للتواصل بين البشر، ومكون من مكونات الشخصية، وعنصر من عناصر الوحدة بين الشعوب الناطقة بها. والحفاظ على لغة أي أمة حفاظ على هويتها وعلى شرفها. ولغتنا العربية أحق اللغات وأولاها بذلك، فقد شرفها الله سبحانه وتعالى بأن أنزل بها قرآنه الذي سيظل المسلمون يتعبدون به إلى أن تقوم الساعة. ولا يصح أن نتراخى أو نتهاون في الدفاع

عنها والحفاظ عليها، كما لا يصح أن نسمح لليأس بأن يتسرب إلى نفوسنا، أو أن نتصور أن الخرق قد اتسع على الراقع، وأن المشكلة أصبحت مستعصية على الحل. فمهما واجهت هذه اللغة من تحديات فستبقى إلى آخر الزمان لأن الله قد تكفل بحفظها حين تكفل بحفظ كتابه حيث قال "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون".

ولحماية هذه اللغة الشريفة مما يتهددها من أخطار، ولانتشال أبنائنا من الهوة اللغوية التي تردوا فيها، والارتقاء بمستوى الأداء اللغوي لطلاب الجامعات يلزم اتخاذ مجموعة من الإجراءات:

أولاً: الاهتمام بإعداد معلمي اللغة العربية إعداداً علمياً وتربوياً جيداً، مع التركيز على معلمي المرحلة الأولى لأنها الأساس، وإذا لم يكن متيناً فسينهار أي بناء يبنى عليه.

ثانياً: تحديث مناهج اللغة العربية في جميع مراحل التعليم، والاهتمام بحصة القراءة وحصة الإملاء في المرحلتين الأولى والمتوسطة، وتنشيط المسابقات الأدبية بين الطلاب.

ثالثاً: رفع درجة النجاح في اللغة العربية إلى ٦٠% بدلاً من ٥٠%.

رابعاً: تخصيص نسبة من الدرجة المقدرة لكل مادة للأداء اللغوي (إملاءً ونحواً وتعبيراً)، على أن يطبق ذلك على جميع المواد الدراسية في كافة المراحل التعليمية، وأن تكون هذه القاعدة معلومة للطلاب لأن طالب الجامعة لو رسب في مادة أو نقصت درجاته فيها لافتقاده القدرة على التعبير السليم فسيتصور أن السبب في ذلك هو عدم كفاية المعلومات التي كتبها، ولن يخطر له على بال أن عجزه عن التعبير الصحيح أحد الأسباب.

خامساً: حث القائمين بالتدريس في المدارس والجامعات على أن يلقوا دروسهم باللغة الفصحى في جميع التخصصات.

سادساً: حث وسائل الإعلام على الالتزام باللغة الفصحى فيما تقدمه من برامج وإعلانات، وعقد دورات تدريبية للمذيعين ومقدمي البرامج لرفع مستواهم اللغوي وتعويدهم على فن الإلقاء وعلى سلامة نطق الألفاظ.

سابعاً: تصميم مقرر في اللغة العربية يدرس في الفصل الدراسي الأول من السنة الأولى في جميع الكليات والمعاهد العليا بالجامعات، يكون الهدف منه تبصير الطلاب بأهمية الكتابة بلغة سليمة، وتنبيههم إلى الأخطاء الشائعة في الإملاء والنحو والتعبير لتلافيها.

ثامناً: عدم طبع أي كتاب إلا بعد مراجعته مراجعة لغوية، وإلزام دور النشر الحكومية والخاصة بمصححين لغويين حتى لا يصدر كتاب فيه خطأ إملائي أو نحوي. ولنبدأ بتصحيح الكتب التي تقررها الجامعات على طلابها. فلا شك أن قراءة لغة سليمة تساعد على الكتابة بلغة سليمة.

تاسعاً: حظر أي إعلان أو ملصق به أخطاء لغوية أو إملائية أو نحوية.

وعلى قدر توفيقنا في تحقيق هذه الأمور يكون الارتقاء بمستوى الأداء اللغوي، لا أقول لطلاب الجامعات ولا لطلاب المدارس، وإنما لكل فرد من أفراد المجتمع قادر على القراءة والكتابة.